من
التراث الكنسي

معرفة الله

كأسمى هدف وأعظم فرح للحياة[١]

(٤)

(١) هل يمكن معرفة الله؟

أعلن الله نفسه لنا في ابنه يسوع. قال الربُّ يسوع: «اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ» (يو ١٤: ٩). يكتب يوحنا الرَّسول ويقول: «اَللهُ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ قَطُّ. اَلابْنُ الْوَحِيدُ الَّذِي هُوَ فِي حِضْنِ الآب هُوَ خَبَّرَ» (يو ١: ١٨). كلمة (خبَّر) هي الفعل exegisato (شَرَحَ) في اليونانيَّة الأصليَّة. إنَّها نفس الكلمة التي اشتُقَّت منها كلمة exegesis والتي تعني "تفسير"، وهكذا نقول إنَّ يسوع هو (the exegesis شَرْح) الآب. مِن خلال يسوع يمكننا أنْ نأتي لنعرف الله، ولكن فقط بالقدر الذي يمكننا فهمه كبَشَرٍ محدودين. هناك أكثر بكثير عن الله ممَّا نراه في يسوع.

يؤكِّد الكتاب المقدَّس وآباء الكنيسة على أنَّ جوهر الله يبقى مجهولًا وغير مفهوم. قال الله: «أَهْيَهِ الَّذِي أَهْيَهْ I AM WHO WHO I AM». يهوه YHWH يبقي غير معروف. لا يمكن لأحدٍ أنْ يخترق جوهر الله، ونحن نقصد بالجوهر طبيعة الله. يكتب القدِّيس بولس ويقول: «الله ... سَاكِنًا فِي نُورٍ لَا يُدْنَى مِنْهُ، الَّذِي لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ» (١تي ٦: ١٦).

لهذا فإنَّ الله معروفٌ وغير معروفٍ معًا. إنَّه غير معروفٍ بالنِّسبة لجوهره، ومعروفٌ حسب طاقاته الطبيعيَّة التي تصل إلى الإنسان لتقوده إلى الله. إنَّ "طاقات energies" الله هي نفس ما يَطْلق عليه الكتاب المقدَّس"نعمة grace" الله.

عندما سأل موسى الله في العهد القديم أنْ يسمح له برؤية مجده، قال الله: «لَا تَقْدِرُ أَنْ تَرَى وَجْهِي، لأَنَّ الإِنْسَانَ لَا يَرَانِي وَيَعِيشُ» (خر ٣٣: ٢٠)، لذلك عندما عَبَر، غطَّى الله وجه موسى حتى لا يرى سِوَى "أجزاء ظهره" وليس وجهه (خر ٣٣: ١٨-٢٣)، أو كما تقول ترجمة

---

(١) عن كتاب بعنوان:

Anthony M. *Coniaris، Knowing God Life's Highest Purpose & Joy.*

كامبردج Cambridge Bible: "سُمِحَ لموسى أنْ يرى نور الشَّفَق afterglow الذي تبع الله" (خر ٣٣ :٢٣). وحتى في هذا الملجإ، الذي كان فيه موسى مَحْميًّا في شقٍّ صخريٍّ في كَتِفٍ جبلي، مع حماية يد الله، يقول أحد المفسِّرين: "إنَّ الاقتراب مِن القدير لابدَّ وأنْ يكون بالنِّسبة لموسى وكأنَّه تعرَّض لقوَّةٍ مسبِّبة للعَمَى، والقوَّة المتمثِّلة في انفجارٍ نووي".

أمثلة أخرى مِن العهد القديم على عدم إمكانيَّة الاقتراب مِن الله، نراها في إشعياء الذي كان يخشى أنْ يموت لأنَّه رأى الله عاليًا ومرتفعًا على عرشه. حتَّى السيرافيم كانوا يُغطُّون أعينهم مِن حضور الله (إشعياء ١: ٦-٧).

(٢) جبل مُنْحَدِر و صعب التسلُّق:

العهد الجديد يتبع العهد القديم في إعلان جوهر الله المجهول وغير المعروف. يقول الكتاب: «اللهُ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ قَطُّ» (يو ١: ١٨، ١يو ٤: ١٢)، و"أنَّه يسكن في نورٍ لا يُدْنى مِنه" (١تي ٦: ١٦). تَقَابل القدِّيس بولس مع الله وهو في الطَّريق إلى دمشق في ضوءٍ يُعمي البصر، ويُخبرنا القدِّيس بولس مرَّتين أنَّه لا يعلم، ولكن الله وحده يعلم بالضَّبط ما كان يختبره. عندما اختُطِف إلى الفردوس، رأى الله رؤية لا تستطيع الكلمات أنْ تُعَبِّر عنها، وبحسب قوله: «لَا يُعَبِّرُ عَنْهَا» (٢كو ١٢: ١-٤)؛ وفي (رو ١١: ٣٣)، يستند القدِّيس بولس على (إش ٤٠: ١٣ و إر ٢٣: ١٨)، ليُذَكِّرنا بأنَّ طُرُق الله لا يمكن أنْ تُستَقْصَى، ويقول: «مَا أَبْعَدَ أَحْكَامَهُ عَنِ الْفَحْصِ وَطُرُقَهُ عَنِ الاِسْتِقْصَاءِ!». لا يمكن لأحدٍ أنْ يعرف تمامًا فِكْرَ الله. كتب القدِّيس غريغوريوس النيصي St. Gregory of Nyssa يقول:

[إنَّ معرفة الله جبلٌ شديد الانحدار وصعب التسلُّق].

يرى القدِّيس بولس في الكتابة إلى أهل كورنثوس فجوةً هائلة بين حكمة الله الفائقة وهشاشة كلِّ فكرٍ بشري، فيقول:

«أَلَمْ يُجَهِّلِ اللهُ حِكْمَةَ هذَا الْعَالَمِ؟ لأَنَّهُ إِذْ كَانَ الْعَالَمُ فِي حِكْمَةِ اللهِ لَمْ يَعْرِفِ اللهَ بِالْحِكْمَةِ، اسْتَحْسَنَ اللهُ أَنْ يُخَلِّصَ الْمُؤْمِنِينَ بِجَهَالَةِ الْكِرَازَةِ... لأَنَّ جَهَالَةَ اللهِ أَحْكَمُ مِنَ النَّاسِ! وَضَعْفَ اللهِ أَقْوَى مِنَ النَّاسِ!» (١كو ١: ٢٠-٢١، ٢٥).

(٣) معرفة الله مِن خلال الحواس الخمس:

بحسب التَّقليد، فقد استخدمت الكنيسة الأرثوذكسيَّة الحواس الخمس لتُساعدنا أنْ

نختبر حضور الله المُتعالي؛ وعلى سبيل المثال، تُستخدم الأيقونات، والفن المعماري... إلخ، لجذب العيون لرؤية هذه الأمور؛ والموسيقي الطقسيَّة لجذب الأُذُنين؛ والإفخارستيا لحاسَّة التذوُّق؛ والبخور لحاسَّة الشَّم؛ والمَسْح بزيت الميرون والزيت المقدَّس (زيت مَسْحة المرضى) لحاسَّة اللَّمس. هذه وسائل حسيَّة تجذب الحواس الخمس، وتُساعدنا في رحلتنا نحو فهم الإله غير المفهوم وغير المحدود. نحن بحاجةٍ إلى كلِّ مساعدة يمكننا الحصول عليها في هذا الصَّدد، والكنيسة توفِّر لنا ذلك.

يجب أنْ نُدرك أنَّ القليل مِن الحقيقة التي كشفها الله عن نفسه هي فقط "قليل مِن الحقيقة" عن الله الذي يفوق الفهم، وحتى في المسيح لم نَرَ أو نُدرك الحقيقة الكاملة حول جوهر الله، فقط نُدرك جزءًا صغيرًا منها؛ لكنَّه كافٍ لنا لنكتسب معرفة خلاصيَّة عنه.

كان القدِّيس سلوان Staretz Silouan" يُصلِّي ويقول:
[أيُّها الرُّوح القدس، لقد كشفتَ لي سرًّا يتجاوز الفهم].

(٤) بعض أقوال آباء الكنيسة على معرفة الله:

آمن القديس أفرام السُّرياني Ephrem the Syrian مع العديد مِن آباء الكنيسة بأنَّه يلزم على العقل الذي لديه معرفة بشيءٍ ما، أنْ يكون أعظم مِن الكائن الذي هو موضوع معرفته. وبكلماتٍ أخرى، لو أنَّك تستطيع فهم شيءٍ ما، فأنتَ أعظم مِن هذا الشيء الذي تفهمه، ولهذا فإنَّ الله الذي مِن الممكن معرفته كليًّا ليس إلهًا، بل المرء الذي يعرفه يكون هو الله. أنْ تعرف اسم الله هو أنْ يكون لديك قدرة تفوقه، وتحوي كلمات القديس أفرام هذا المعنى، فيقول:

[القادر على الفحص، يصبح إناءً لِمَا يفحصه؛ المعرفة التي تَقْدر على احتواء العِلْم بكلِّ شيء تصبح أعظم مِنه، لأنَّها أثبتت قدرتها على قياسه برمَّته. وبالتَّالي، فإنَّ الشَّخص الذي يفحص الآب والابن يجب أنْ يكون أعظم منهما! ما أبعد هذا الأمر، إذن، بل وهو مرفوض، أنْ يتمَّ فحص الآب والابن، بينما يُعَلِّي التراب والرَّماد مِن شأنْ نفسه!] (على الإيمان ٩: ١٦).

وكتب القديس يوحنا ذهبي الفم بخصوص عدم قدرتنا على فهم الله، فيقول:
[دعونا نبتهل إليه كإلهٍ لا يمكن التَّعبير عنه، فهو غير مرئي وغير معروف. دعونا

نعترف أنَّه يفوق كلَّ قوَّة الكلام البَشَري، وأنَّه يستعصي على الفهم مِن كلِّ ذكاء البَشَر، وأنَّ الملائكة لا تستطيع أنْ تسبر أغواره، ولا السيرافيم أنْ يراه بكلِّ وضوح، ولا أنْ يفهمه الشَّاروبيم فهمًا مطلقًا، لأنَّه غير مرئي للسَّلاطين والرِّئاسات والقوَّات، وكلِّ الخلائق دون استثناء؛ الابن والرُّوح القدس فقط هما اللذان يعرفانه].

شَرَح القدِّيس غريغوريوس النِّيصي ذات مرَّة الآية: «لِلسُّكُوتِ وَقْتٌ وَلِلتَّكَلُّمِ وَقْتٌ» (جامعة ٣: ٧) ورَبَطها بعدم قدرتنا على معرفة الله، فقال:

[في الحديث عن الله، عندما يوجد سؤال عن جوهره، فهذا هو الوقت المناسب للصَّمت؛ ومع ذلك، فعندما يتعلَّق السُّؤال بقدراته (energia)، هذه المعرفة التي يمكن أنْ تنحدر إلينا، فهذا هو الوقت للتحدُّث عن القوَّة الكليَّة مِن خلال سرد أعماله وشرح أفعاله، واستخدام الكلمات لخدمة هذا الغرض].

(٥) كيف يجب أنْ نَرُدَّ على عدم فهم الله؟

يتحدَّث القدِّيس يوحنا ذهبي الفم عن هؤلاء الذين يطلبون سببًا وعِلَّة لكلِّ ما يحدث لهم، ففي أحاديثه عن العناية الإلهية Providence، يشنُّ هجومًا على العقل السَّائب (المُطْلق العنان)، فيكتب:

[العقل الفضولي منشغلٌ بأسئلة عبثيَّة، يريد أنْ يفهم أسباب كلِّ شيء يحدث، ويتصارع بشكلٍ مثير للجدل مع العناية الإلهيَّة غير المفهومة وغير الموصوفة].

ويمضي في القول: إنَّ العقل البشري غير المُنضبط يرفض الاعتراف بأنَّه يتعامل "مع موضوعٍ لانهائي في طبيعته"، أي جوهر الله.

يُقدِّم القدِّيس يوحنا ذهبي الفم القدِّيس بولس كمثال للشَّخص الذي تراجع أمام عدم الفهم لغير محدوديَّة الله. أراد القدِّيس بولس أيضًا استقصاء عمق وروعة العناية الإلهيَّة، لكن "تغلَّب عليه نوع مِن الدُّوار أمام استحالة تفسيرها". لماذا؟ يقول القدِّيس يوحنا ذهبي الفم: "لأنَّ معرفة الله لا حدود لها" و"غير قابلة للاستقصاء" و"غامضة" و"لا توصَف" و"تفوق كل فهم".

القدِّيس يوحنا ذهبي الفم لا يتجاهل العقل، ومع ذلك هو يجزم أنَّ محاولة فهم الله بعقولنا المحدودة تكون "جنون وحماقة"، لأنَّ العقل البشري محدودٌ جدًّا وضعيفٌ

مقارنة بالله غير المحدود. يقول القدِّيس يوحنا ذهبي الفم إنَّه بمجرَّد أنْ ندرك محدوديَّة وضعف الطَّبيعة البشريَّة، نفتح الباب لتقبُّل أعظم ما يريد الله أنْ يُعلنه لنا، فيوضِّح أنَّ:

[الله يُعْلِن ذاته للعقل البشري، كلَّما يستجيب لله في إيمانٍ].

ومِن ثمَّ يجب علينا أنْ نُذْعِن بثبات لحكمة الله غير المفحوصة وعمق محبَّته الخفيَّة، إنَّ طُرُقنا ليست كطُرُق الله: «لأَنَّ أَفْكَارِي لَيْسَتْ أَفْكَارَكُمْ، وَلاَ طُرُقُكُمْ طُرُقِي، يَقُولُ الرَّبُّ. لأَنَّهُ كَمَا عَلَتِ السَّمَاوَاتُ عَنِ الأَرْضِ، هكَذَا عَلَتْ طُرُقِي عَنْ طُرُقِكُمْ وَأَفْكَارِي عَنْ أَفْكَارِكُمْ» (إش ٥٥:٨-٩).

يستخدم ذهبي الفم مثال الطبيب، فيوضِّح أنَّنا نكون على استعدادٍ للخضوع لمبضع الجرَّاح والأدوية المُرَّة، لأنَّ لدينا وعيًا عميقًا بجهلنا في الأمور الطبيَّة، مقارنة بخبرة الجرَّاح لمدَّةٍ طويلة ومعرفته. ويناقش أنَّه إذا كان مِن السَّخف لنا أنْ نسأل الطَّبيب، فكم يكون مِن الحماقة والغرور لنا أنْ نسأل في حكمة وحب الله اللامتناهي لنا.

كما قال القدِّيس ذهبي الفم:

[المجد لله في كلِّ شيء. لن أتوقَّف عن هذا القول مهما حدث لي].

(٦) كلَّما عرفنا أكثر كلما قلَّت معرفتنا:

يقول أحد العلماء الدَّارسين إنَّ العالَم الذي خلقه الله مذهلٌ للغاية في جماله وتعقيده لدرجة أنَّه كلَّما تعلَّمنا وعرفنا عنه أكثر، كلَّما قلَّت معرفتنا به. فيروي ويقول كيف أنَّه منذ قرنٍ مضى كان الرَّسم التَّخْطيطي diagram للخليَّة بسيطًا، وبعد عشرين عامًا كان الرَّسم البياني لنفس الخليَّة أكثر تعقيدًا. ويقول إنَّ الرَّسم البياني للخليَّة اليوم مُعقَّدٌ للغاية لدرجة أنَّه يُحَيِّر عقل المرء؛ وإلى الآن لا يزال العلماء لا يملكون الصُّورة الكاملة لِمَا تتضمَّنه خليَّة واحدة فقط.

إذا كان عمل يد الله (خليَّة صغيرة واحدة فقط) يُذْهِل العقل، فكيف نتوقَّع أنْ نفهم الله بالكامل؟ أبسط خليَّة في الجسم معقَّدة للغاية لدرجة أنَّ العلماء البارزين لا يزالون يحاولون اكتشافها. طبيعة الضَّوْء، سواء كانت جُسيمًا أو موجةً أو أيَّ شيءٍ آخر لا يزال لُغزًا. إنَّ وحدات البناء الأساسيَّة لعالمنا غامضة للغاية، سواء كانت ذرات أو بروتونات أو إلكترونات أو نيوترونات أو كواركات لدرجة تجعل الفيزيائيِّين مُتَحيِّرين.